آرنستو تشي غيفارا

1928 - 1967

احتفل العالم بمرور ثمانين عاماً على ميلاد غيفارا. والإحتفال بغيفارا لا يتوقف. والمناسبات لهذا الإحتفال عديدة لا تحصى. ذلك أن غيفارا قد تحول إلى أسطورة وإلى رمز لملحمة فريدة من نوعها نادرة المثال. وأسطورة غيفارا وملحمة حياته هما أسطورة وملحمة حقيقيتان. أي أن بطلهما هو شخصية إنسانية حقيقية، لا تمت بصلة إلى الخيال مثلما هو حال الأساطير وحال الملاحم الأسطورية المعروفة في التاريخ القديم.

كثرت الكتابات وتعددت الكتب التي تتحدث عن غيفارا الأسطورة والملحمة. وتنوعت خيالات المشاركين في تلك الكتابات والكتب. وتنوعت التخيلات التي أعطت لهذا الإنسان الحقيقي صفات وسمات الكائنات الأسطورية. وليس في هذا الأمر ما يدعو إلى الغرابة في زمن كثرت فيه المظالم وكثرت فيه الهزائم التي منيت بها مشاريع التغيير الهادفة إلى تحسين شروط حياة البشر على الكوكب. وكثرت، بفعل هذه المظالم وهذه الهزائم، الخرافات والبدع والتأملات الماورائية التي تحيل مستقبل البشر إلى مخلصين من هنا ومن هناك سيأتون إلى العالم في زمن قادم حاملين معهم حلولاً ماورائية لمشاكل ومظالم وآلام حقيقية قائمة مستعصية على الحل على أرض الواقع. وربما يكون للثورات العربية المعاصرة دور في تحرير الإنسان العربي المعاصر من أوهام انتظار مخلص أسطوري والدخول في نضال بقواه وبطاقاته للإنتقال إلى مستقبل أفضل لحياته ولحياة أوطانه.

تتبعت سيرة غيفارا منذ بدايات ظهوره على مسرح العمل الثوري. ساعدني في ذلك عملي في منظمات عالمية منذ مطالع خمسينات القرن الماضي. وكان أول بروز لاسم غيفارا في المرحلة التي كان قد قرر فيها مع رفيق عمره فيدل كاسترو في عام 1956 بداية النضال لتحرير كوبا من دكتاتورية باتستا. هذه المتابعة المبكرة لسيرة غيفارا تجعلني اليوم أكثر تحرراً مما ساد في الكتابات حول أسطورة هذا البطل الثوري الرمز الذي تتعلق بنموذجه أجيال متعددة الإنتماءات في العالم المعاصر في

نضالها من أجل مستقبل أفضل لحياتها ولحياة شعوبها. وإذ أشير إلى ما أعتبره تحرراً نسبياً وتمايزاً نسبياً أيضاً عن النمط السائد في الكتابات الكثيرة عن غيفارا، فلأنني سأتحدث عنه كإنسان حقيقي وليس كأسطورة. لكن الإنسان الحقيقي في شخصية غيفارا لا يلغي الطابع الأسطوري فيها، بالمعنى المجازي للبطل الأسطوري. ويبرز الأسطوري في سيرة غيفارا في طابع المغامرة التي اختارها نمطاً لحياته، المغامرة المقرونة عنده بالحلم لتحقيق أهدافه بواسطتها. وهي المغامرة التي برزت في حياته قبل أن يصبح رمزاً من رموز الثورة الكوبية مع كاسترو وبعد أن غادر كوبا في الخفاء إلى بوليفيا لينضم إلى ثورتها ويصبح شهيداً في ذلك المعنى الأسطوري للشهادة. إلا أن غيفارا كان قد اختار قبل أن يذهب في رحلته الأخيرة إلى بوليفيا أن يزور بعض البلدان العربية والأفريقية والأميركية اللاتينية التي كان يرى فيها احتمالات ثورة قادمة من النوع الذي كان يحلم به. وهي زيارات أصابته بالخيبة. فقرر أن يذهب في اتجاه بوليفيا.

لنتذكر في هذا السياق بعض فصول سيرته الأولى قبل أن يصبح ثائراً ممتهناً ثم بطلاً وشهيداً.

ولد أرنستو غيفارا دي ل سرنا في عام 1928 في مدينة روزاريو في الأرجنتين. كان الإبن الأول لأب من الطبقة الوسطى. تابع دراسته الإبتدائية والثانوية والتحق بالجامعة لدراسة الهندسة. لكنه في عام 1948 غيّر تخصصه والتحق بكلية الطب في جامعة بونس أيرس. قام في عام 1950 برحلة في شمالي الأرجنتين على دراجة نارية اجتاز خلالها 4500 كيلومتر. وفي عام 1951 انطلق مع صديقه البرتو جرانادو في رحلة على دراجة نارية في أميركا اللاتينية استمرت عاماً كاملاً. وشملت الرحلة إضافة إلى الأرجنتين كلاً من الشيلي والبيرو وكولومبيا وفنزويلا ثم ميامي في الولايات المتحدة الأميركية. ثم أنهى جولته بالعودة مجدداً إلى الأرجنتين. في عام 1953 تخرج أرنستو طبيباً. وشرع في رحلة جديدة داخل القارة قادته إلى

بوليفيا والبيرو والأكوادور وبنما وكوستاريكا وغواتيمالا. في غواتيمالا التقى غيفارا بالثائر الكوبي الشاب أنطونيو لوبيز. وفي بوليفيا تعرف إلى الثورة التي كانت قد اندلعت في وقت سابق. كانت تلك الرحلات الثلاث تشير إلى روح المغامرة عنده. كما كانت تشير إلى أنه كان يبحث عن شيء ما يكمل به طموحاً جارفاً عنده سرعان ما ظهر في مرحلة لاحقة بانضمامه إلى كاسترو في قيادة الثورة الكوبية وما تلا ذلك من مغامرات ثورية. ويتحدث غيفارا في كتابه "مذكرات الحروب الثورية" عن لقائه بكاسترو وعن النقاشات التي دارت بينهما وجعلتهما صديقين ورفيقيّ رحلة ثورية كانا يحلمان بأن يحققا فيها الإنتصار في كوبا وفي دول أخرى في أميركا اللاتينية. لكن لتلك الرحلات في وجدان هذا الثائر الشاب أحلاماً كانت تتجاوز تلك اللحظات الزمنية المرتبطة بالرحلات المشار إليها إلى أفق لم يكن قد تبلور في ذهن غيفارا بعد. والتوقف عند بعض يومياته في رحلته الطويلة عبر القارة الأميركية الجنوبية، يقدم لنا بعض العناصر المهمة عن شخصية غيفارا الإنسانية في المراحل التي سبقت العاصفة. وهي العاصفة التي حولت سيرته الشخصية والثورية إلى أسطورة، وصارت تؤرَخ بها مراحل حياته. لكن الأهم في تلك اليوميات يومياته الخاصة في فترة وجوده في بوليفيا التي كان يكتبها بصورة متواصلة حتى اللحظة التي تم فيها القبض عليه وإعدامه مع رفاقه. يقول كاسترو في المقدمة التي وضعها في كتاب غيفارا "يوميات بوليفيا": "كان من عادة تشي، في حياته كمحارب، أن يدون ملاحظاته اليومية في كل عناية واهتمام... وكنا نستطيع أن نرى تشي –كما سماه الكوبيون تعبيراً عن مودتهم له منذ اللحظات الأولى– وهو يخرج دفتراً ويسجل فيه ملاحظاته في خط الطبيب الذي تصعب قراءته لصغر حروفه". ويتابع كاسترو: "قال تشي، ذات يوم، للمحاربين في بوليفيا: أن هذا النوع من النضال سيتيح لنا فرصة التحول إلى ثوريين، فنبلغ المستوى الأعلى الذي يطمح الجنس البشري إلى بلوغه".

في غواتيمالا تفجرت أول ملامح الثائر في شخصية غيفارا. كان ذلك في عام 1954. فقد صعقته إطاحة الحكومة الثورية بتدخل مباشر من قبل المخابرات الأميركية. وبدأ يدرك منذ تلك اللحظة أن للثورة بداية لا نهاية لها وأن لها أبطالاً يسقطون على الطريق وأبطالاً آخرين يولدون ليكملوا المسيرة. ترك غواتيمالا في ذلك العام الحاسم في حياته وتوجه إلى المكسيك. وكانت المكسيك في ذلك التاريخ ساحة للحركات الثورية من كل الأنواع. تعرف هناك في البداية إلى جماعة ثورية كوبية. ثم التقى بفيدل كاسترو الذي كان قد فرّ إلى المكسيك بعد فشل الهجوم الذي قام به في عام 1953 ضد حامية المونكادا في مدينة سانتياغو دي كوبا.

في المكسيك تزوج غيفارا من هيلدا غاديا التي أنجبت ابنته هيلدا غاديا. واتفق مع كاسترو وانضم إلى مشروعه في حرب العصابات لتحرير كوبا من دكتاتورية باتستا. وفي لقائه مع كاسترو بدأت الرحلة التي كان يبحث عنها لتحقيق حلمه الثوري. وكان عام 1956 عام البدء الحقيقي بالثورة التي كان ميدانها ومسرح الأعمال الثورية فيها كوبا كنموذج أول للثورة بنظر غيفارا. ويشكل مركب "غرانما" الذي قاده إلى الإنتصار التاريخي على فلول جيش باتستا في مدينة سانتا كلارا في عام 1959 الرمز الحي لتلك المغامرة الثورية الحافلة بالبطولات. انتصرت الثورة في ذلك العام بالذات (1959). وبدأ غيفارا حياة زوجية جديدة بزواجه من أليد مارش التي أنجبت له أربعة أبناء. كما بدأ حياة ثورية من نوع مختلف من موقع السلطة في كوبا المحررة. تسلم في دولة الثورة مناصب وزارية عدة من موقعه كشريك أساسي لفيدل كاسترو في إنجاز المهمة التاريخية الأولى للثورة المتمثلة بإسقاط الدكتاتور وإقامة دولة الفقراء والمظلومين. وهي الدولة التي كانت في منظور غيفارا هي الدولة التي كان يحلم بها والتي كان يفترض بها أن تقدم لأولئك المظلومين الحرية في حياتهم بديلاً من العبودية، والتقدم لبلدهم الذي يهيئ لهم الشروط الضرورية للعيش الكريم.

إلا أن تاريخ غيفارا بعد انتصار الثورة في كوبا يشير إلى أنه رأى في الدولة ما يشبه النقيض للثورة التي كان يحلم بها في تصوراته وفي مخيلته. وتلك هي قراءتي لسيرة غيفارا التي حولته مغامراته الثورية وأحلامه وخيباته ثم استشهاده إلى بطل أسطوري في العصر الحديث.

حاول غيفارا من موقعه في السلطة في كوبا أن يعرف بدقة مدى العلاقة بين الثورة وأهدافها وبين الدولة التي قامت بعد انتصار الثورة. والمقصود بالعلاقة هنا هو مدى التطابق بين أهداف كل منهما. كما أراد أن يعرف مدى الإشعاع الذي ولدته الثورة الكوبية بانتصارها وبثته في أرجاء العالم الثالث. وقبل أن يصل إلى الإستنتاجات الضرورية التي كان يهيئ نفسه لاستحضارها قام بجولات متعددة إلى بعض البلدان الأفريقية وإلى بعض البلدان العربية وإلى بعض بلدان أميركا اللاتينية. زار الجزائر التي ترافق تحررها مع تحرر كوبا في أعقاب ثورة اختلفت قيادتها واختلفت الإتجاهات السياسية فيها عن قيادة الثورة الكوبية وعن اتجاهاتها. لم يتوقف غيفارا عند تلك الإختلافات بين الثورتين. إذ كان يرى أن الظروف تختلف بين البلدان، وبين القارات التي تقع فيها تلك البلدان وبين الثورات هنا وهناك وهنالك. وأقام علاقة صداقة مع أحمد بن بله، أول رئيس لدولة الجزائر المستقلة. لكن الإنقلاب الذي قام به صديقه بومدين ضد صديقه بن بله أثار عنده تساؤلات كثيرة ومخاوف وقلقاً. ثم ذهب إلى مصر للقاء جمال عبد الناصر. فأعجب بشخصيته وبتجربته المختلفتين عن شخصيته هو وعن شخصية كاسترو وعن تجربتهما الثورية في كوبا. لكن أسئلة جديدة بدأت تتكون عنده حول التجربة المصرية وحول امتداداتها العربية والأفريقية. ثم سافر إلى الكونغو في شكل مختلف من حيث المهمة والهدف عن سفره إلى كل من مصر والجزائر. إذ لم تكن الأوضاع في الكونغو تسمح له بالظهور مثلما كان عليه الحال في البلدين الأفريقيين العربيين المحررين. كانت الكونغو لا تزال تحت تأثير الكارثة التي تمثلت باعتقال واغتيال

باتريس لومومبا بطل الثورة الكونغولية. وكانت ماثلة أمامه أزمة حكومة جزينغا "شريك وصديق لومومبا" التي رافقت محاولته الثورية للإنتقام من قتلة لومومبا. وكانت قد انتهت تلك المحاولة بالفشل. وأذكر أنني كنت قبل انهيار حكومة جزينغا الثورية أستعد لقيادة فريق من الشيوعيين اللبنايين للمشاركة في حركة المتطوعين الأمميين الذين كانوا يتهيأون للذهاب إلى مقاطعة "كاتانغا" لمساعدة تلك الحكومة الثورية في مهمتها الصعبة. وقبل أن ينطلق فريقنا في طريقه إلى تلك المهمة الأممية كانت حكومة جزينغا تترنح ثم تسقط تحت ضربات "تشومبي" المجنونة المسلحة والممولة والمدعمة من قبل الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها المستعمرين البلجيك القدامى.

عاد غيفارا من رحلاته المشار إليها في البلدان العربية والأفريقية ليبدأ حملة تضامن عالمية مع الشعب الكونغولي. ثم سافر على الفور إلى بوليفيا كمحاولة منه لاستطلاع شروط الدخول إليها في عمله الثوري الجديد الذي كان ينتظره بعد أن أنجز مهمته في تحرير كوبا بالثورة.

اسئلة كثيرة أثارها التحول الذي حصل في حياة غيفارا بعد الأعوام الأولى التي قضاها في مواقع مسؤولة في السلطة إلى جانب رفيقه فيدل كاسترو. وفي الواقع فإن غيفارا كان قد بدأ يتحول خلال الثورة وبعد انتصارها خصوصاً إلى ثوري راديكالي. وقادته راديكاليته كماركسي إلى الإختلاف أيديولوجياً وسياسياً مع الإتحاد السوفياتي. إذ كان يطالب بلد الإشتراكية الأول بأن يقدم إلى الدول الفقيرة كل ما تحتاج إليه من أجل نهوضها. ولم يكن يعنيه في ذلك الموقف ماذا كانت ستشكل تلك العطاءات من دون حساب من عبء على الشعب السوفياتي بالذات الذي كان قد قدم في الحرب العالمية الثانية تضحيات جسيمة للتحرر من الإحتلال النازي لبلاده ولتحرير العالم من تلك الآفة التي ارتبطت باسم هتلر وكلفت البشرية عشرات الملايين من القتلى ودماراً ظلت أوروبا كلها ومعها الإتحاد السوفياتي عقوداً بكاملها

تناضل لإزالة آثاره. لكن غيفارا كان يريد إضافة إلى تلك التقديمات السخية من الإتحاد السوفياتي إلى البلدان الفقيرة أن يتخلى الإتحاد السوفياتي عما اعتبره هو مساومات غير مقبولة مع الإمبريالية الأميركية باسم التعايش السلمي. وكان قد تمثل جزء من هذه المستوعبات في نظره في موضوع الصواريخ التي كانت مرسلة من موسكو إلى كوبا في عام 1962 دعماً لدفاعاتها ضد احتمال عدوان أميركي عليها كانت بعض معالمه بارزة للعيان. فمن المعروف أن خروتشوف قد أعاد تلك الصاوريخ من البحر قبل وصولها إلى كوبا مقابل تعهد أميركا بعدم غزو كوبا.

إلا أن الأهم من ذلك هو أن غيفارا كان قد بدأ يرى في ممارسة الدولة الكوبية لدورها ما اعتبره يتناقض مع مفهومه للثورة ولاستمرارها حتى وهي تتخذ صفة الدولة ووظيفتها. التناقض بين الدولة والثورة كان هاجسه الأخير حين قرر أن يذهب خفية في عام 1966 إلى بوليفيا للإنضمام إلى الحركة الثورية فيها استكمالاً لما اعتبره وفق مفهومه للثورة نهجاً ثورياً في ممارسة وظيفة الدولة من جهة، ولجعل الثورة من جهة ثانية، ثورة دائمة تشمل العالم كله لا سيما في القسم الجنوبي منه. فهو كان يعتبر أن جنوب العالم هو الضحية الدائمة لكل العهود السابقة من الإستعمار بصيغه القديمة والمتجددة. وقد عبر عن فكرته تلك في الرسالة التي وجهها إلى منظمة تضامن القارات الثلاث التي ساهم مع كاسترو في خلقها تطويراً من وجهة نظرهما لمنظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا، التي كانت قد تأسست في عام 1957. وكان الهدف المباشر من خلق تلك المنظمة للقارات الثلاث التي عقدت مؤتمرها الأول في كوبا في أواسط ستينات القرن الماضي "تحرير" حركات التحرر الوطني في بلدان تلك القارات من هيمنة الإتحاد السوفياتي عليها وعلى سياساتها ومواقفها وأشكال نضالها. دعا غيفارا في رسالته تلك التي تركها قبل ذهابه سراً إلى بوليفيا إلى خلق أكثر من فييتنام. وكانت الثورة البوليفية التي ذهب للمشاركة فيها وفي قيادتها واحدة من تلك الثورات التي كان يحلم بها. لكن حياته

انتهت في العام التالي لوجوده في بوليفيا. وقصة اعتقاله وإعدامه في بوليفيا وإخفاء جثمانه معروفة لكثرة ما كتب عنها.

في زيارتي الأخيرة لكوبا في عام 2007 قمت بزيارة إلى مدينة سانتا كلارا. وكان هدفي من زيارة سانتا كلارا هو زيارة ضريح غيفارا وزيارة المتحف الذي تتحدث الآثار فيه عن سيرة هذا المناضل الثوري. كما كان هدفي أن أرى بأم العين المكان الذي أنجز فيه غيفارا مع صديقه فيدل كاسترو تحرير كوبا من فلول الدكتاتور باتستا. فرأيت القطار الذي شهد المعركة الأخيرة التي قضت على تلك الفلول من جيش باتستا. ورأيت مركب "غرانما" الذي وصل ذلك القائد الثوري على متنه إلى سانتا كلارا.

ملحمة غيفارا لا تختصر برواية فصولها وحسب على أهمية هذه الفصول كوقائع وكأحداث. لا بد من قراءة الأثر الذي خلفه غيفارا وراءه بعد إنجازاته الثورية وبعد استشهاده. إذ هو لم يتحول إلى رمز للثورة وللثوار وحسب. ولا هو صار بالنسبة إلى الكثيرين في شتى بقاع الأرض مسيحاً جديداً وصار بالنسبة إلى كثيرين آخرين أيقونة تقتنى في بيوت الحالمين بالثورة أو المتملقين لها ولأبطالها في بلدانهم. الأهم من كل ذلك هو أن غيفارا قد تحول إلى صاحب فكر نظري للثورة. وصار هذا الفكر يحمل صفة وسمة "الغيفارية". وقد تحولت "الغيفارية" مثل الماوية إلى فكر ثوري نقيض للنموذج الثوري السوفياتي. وصار حملة هذا الفكر الجديد الآتي من القارة الأميركية الجنوبية ومن القارة الصينية إلى بلدان العالم الثالث، ومنها بلداننا، يحملون صفة واسم اليسار الجديد الذي ولد معادياً للأحزاب الشيوعية وللنموذج السوفياتي للإشتراكية الذي كات ترتبط به تلك الأحزاب. لكن الغيفارية كفكر وكنظرية للثورة لم تعش طويلاً. وحلت محلها صورة غيفارا "المسيح" الجديد.

وأذكر أنني في عام 1970 الذي صادف مروره مائة عام على ولادة لينين ألقيت بالمناسبة محاضرة في المركز الثقافي السوفياتي بحضور عدد كبير من القيادات

السياسية ومن المثقفين، وبحضور السفير السوفياتي سرفار عظيموف. وقد حرصت أن أقدم في المحاضرة صورة لغيفارا مختلفة عما كان قد ساد في حزبنا قبل ثورة التجديد التي ارتبطت باسم مؤتمره الثاني(1968). وكان جوهر ما قصدت إليه من التذكير بغيفارا هو إنصاف الرجل من قبل مسؤول شيوعي عربي. وكان بعض الإنصاف في محاضرتي تلك يتمثل بالتأكيد بأن البطل الثوري غيفارا لم يكن مغامراً بالمعنى المتعارف عليه للمغامرة فيما يشبه الترف الفكري. بل هو كان صاحب هم ثوري يرمي إلى تحرير العالم وتحرير شعوبه من جلاديهم وسالبي حقوقهم الذين يتمثلون بالإمبرياليين القدامى والجدد عتاة الرأسمال المهيمن على العالم. والمغامرة بهذا المعنى في سيرة غيفارا تستحق التقدير حتى وإن كنا مختلفين معها لا سيما بعد أن أثبتت تلك المغامرة في مثال غيفارا فشلها وانتهت باستشهاد بطلها.

وإذ أذكّر بما قلت عن غيفارا قبل أربعة عقود فإنني أريد أن أضيف إلى قولي القديم ذاك بعد انهيار التجربة الإشتراكية وتراجع الحركات الثورية كلها، بأن غيفارا البطل والأسطورة كان إنساناً حقيقياً. وحين نعود إلى قراءة يومياته على متن دراجة نارية وفي يومياته في بوليفيا سنكتشف السمة الحقيقية للإنسان الحقيقي في غيفارا. إذ هو بصفته الإنسانية هذه العامرة بها يومياته الأولى والأخيرة قرر أن يحول حلمه بالتغيير إلى نهج عملي وإلى طريق وطريقة يكمل بهما البشر في التاريخ القديم والحديث مرحلة إثر مرحلة وحقبة إثر حقبة طريقهم إلى التحرر من كل أنواع العبوديات ومن كل أشكال الظلم والقهر والإستغلال التي سادت وما تزال تسود حتى أيامنا هذه.